

محمد عمران

أيام تمحو أسطورتين معا

من يعرف كيف تولد الريح ؟

انا ادعي اننا نشهد ولادتها اليوم ! وانا ارى ، بعيني ارى ، وبقلبي ، وبجسدي ، وبكل دمي ، ارى قامتها العملاقة تطلع من صدر وطني . وانا اشهد الارض كيف تباركها ، وهي تنتصب في الشمس .

لا ابالغ . انا ارى واسمع : وما اظن احدا في وطني لا يرى ما ارى ، ولا يسمع ما اسمع . نسمع هدير الريح ، ونراها . نكتشف فيها صوتنا ، ووجهنا ، وملامحنا الضائعة . ونعرف اننا نلأس فيها زمن ولادتنا . اين كنا قبلها ؟ كيف كنا ؟ ومن الفشاة التي كانت مضروبة على اسماعنا وابصارنا ؟ ولم كنا في غياب ؟ تلك اسئلة نبحث عن اجوبتها فيما بعد . وقتنا الآن لا يتسع للحديث عما قبل زمن الولادة . وانا اؤكد ان الريح في وطني تولد .

سأسميها لكم هذه الريح . ليست معجزة هي ، ولا أسطورة . غير انها تملك كل صفات الاساطير والمعجزات . تملك الخارق والمدهش والرائع ، تملك كل ما في الولادة العظيمة من ابداع . اوليست ولادة الشعب ، حين يمسك بزمنه ، ولادة نبوية ؟! انا لا ادعي ، ولا ابالغ . انني اضع اصبعي على جوهر البطولة في شعبي ، على معن النبوة والانهاش فيه . ولعل هذا المعلن ما اكتشف ، عبر حقب من تاريخنا بعد زمن المجد الاول ، كما يكتشف الآن ، وهذه الايام بالذات ، من منا ، على امتداد هذا الوطن الترامي من الماء الى الماء ، لا تفاجئه الدهشة وهو يشهد ، بعينه واذنيه ، ودمه ، زحفا من البطولات ما كان يحلم به ، وعنادا على استباق قبض الراية ما كان يظنه في مقاتلينا ؟! لا ابالغ ، ولا ادعي ، اني احكي حقائق متواضعة ، لم يكتبها قائد فد ، او جندي عبقري . بل كتبها كل قادتنا ، وكل افراد جيشنا ، كل مقاتلينا ، هنا ، وفي الجبهة المتقدمة في سيناء . حقائق بسيطة ومتواضعة ، نكتشفها ، يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة من زمن المعركة .

انا اقول ان الريح تولد ، الآن ، في وطني . نحن جميعا نشهد كيف قامتها العملاقة تنتصب في الفراغ الذي كان يشكل هيكل وجودنا ، ليست معجزة هي ولا أسطورة . هي حقيقة شعب يكتشف جوهر الحقيقة فيه . واولى اكتشافاته انه ليس ، كما اوهموه ، جبانا . شعبنا هذه الايام ، ينتصر ، اولا ، على نفسه ، على وهم الخوف والجبين الذي زرعه فيه . ذلك هو انتصاره الاعظم . ترى ، حين يكتب التاريخ ايامنا المضيئة هذه ، هل تسعفه اللفة ؟! في ظني ان كتبة التاريخ سوف يختصرون ، سيقولون شيئا واحدا :

« تلك ايام محت اسطورتين في آن واحد معا » .

الثورة

١٤ تشرين الاول

الحرب .. وبعدها يولد الربيع

على مائدة الجنرالات كان يسكر . غسلوه بالخمير الاحمر حتى انتشى . انتشى فرقص . على الموائد رقص ، على الوجوه ، ثم رقص في شرايين الدم . أسكروه ، اله الحرب « مارس » وتركوه يجن . أسكروه ، وارسلوا جنونه الراقص الينا . وتابع الجنرالات عبء الخمر . في انتشاء الخمر تمطت احلامهم عريضة ، مدت بساط الريح ، وركبته ، اتجه بها صوب بوابات دمشق ، انزلها وعاد . اتجه بها صوب قناطر القاهرة ، عبرتها ودخلت . تمطت الاحلام اكثر : اركبها اله الحرب خلفه ، على صهوة جواده الناري ، وفرش بين يديها سهول الفرات ، وسهول النيل . وفي غيبوبة الخمر صلت لمجد مارس ، ركعت على حوافر حصانه . وبفسارها عمدت وجهها . في سريره كان اله الحرب ، مارس ، يضحك . اكثر من اللازم يحتفى به ، بمجد ، يضع الجنرالات اكليل المجد على راسه ، ويلعنونه آلهة مطلقا على اسرائيل . يحشدون له الجنود والطائرات والاسلحة . يحشدون التكنات والبيوت وحدائق الاطفال . يحشدون الشمس والاشجار ، ومصانع آلات الموت ، في سريره كان اله الحرب يضحك : لم كل هذا الاحتفاء ؟!

ما الذي يجري الآن ؟

مارس اله الحرب المجنون يرقص . سكران يرقص ، وجدلان . على الموائد يرقص ، على الوجوه يرقص ، ويرقص في أوردة الدم . ما الذي يحدث الآن ؟

بساط الريح يتمزق ، وتسقط الاحلام العريضة . تسقط وتتمزق . الاحلام الطائرة صوب دمشق ، والاحلام المحمومة فوق القاهرة .

ما الذي يحدث الآن ؟

اله الحرب يلوي عنان جواده ، عائدا الى موائد الجنرالات . بخاصته يلطم الريح ، ويرسلها شواظا من نار عليهم . بحوافره يكسر البرق ، ويقذفه في وجوههم قنابل . ومن حنجرته التي تصهل يطلق على دمهم رسل الموت .

ما الذي ، الآن ، يحدث ؟!

يفدر بشعبه اله الحرب . لا القرابين تجدي ، ولا الصلوات ، ولا التضرع . يحترق بالنار اللاعب بها ، والى جسده ترتد أنياب الوحش .

وتصرخ اذاعة الجنرالات ، اذاعة بنك الحرب في اسرائيل : « توقف يا مارس ، يا اله الحرب المتوحش ، توقف عن رقصك الجنوني .. » .

وفي ذروة هلعها تعترف اذاعة الجنرالات : « ان مصانع الحرب في اميركا تتعطل آلاتها ، وتصدا أسلحتها في المستودعات ، اذا ما توقف عن رقصه اله الحرب ! »

ماذا ؟ اذاعة بنك الحرب تشتم مصانع آلات الحرب ؟!

عن لغة الكتابة القادمة

اتصل بي احد الاصدقاء الشعراء ، والحرب في توهجها المتصاعد ، وفي حوار على الهاتف قصير ، قال : ماذا نفعل بقصائدنا التي كتبناها قبل الحرب ؟.. قلت على الفور : يقينا سوف نحرقها !..

شاعر آخر من اصدقائنا رفض ان يتحدث في الشعر ، قال لندوبة احدي الصحف : ثمة لغة واحدة اؤمن بها ، هي اللغة التي تخرج ، الآن ، من حنجرة النار . وفي بيروت تنافلت الصحف اخبار مخرجين مزقوا ما بين ايديهم من نصوص كانوا يعدونها لموسم المسرح القادم ، ووقفوا ينتظرون ولادة مسرح ما بعد الحرب . في القاهرة تقدم توفيق الحكيم بطلب الى وزارة الثقافة ، لتهيء له عملا يعوياً يناسب سنه ، اسهاما منه في الحرب ، بحجة ان الكلمة في زمن الحرب ليست ذات جدوى . في اقطار عربية اخرى حدث شيء من هذا ، اكثر او اقل ، لا يهم ، ولكنه شيء يحمل دلالتين معاً :

اولا ، ان الفعل الذي يحدث اكبر من حجم الكلمة ، كائنا ما كان هذا الحجم . وثانيا ، ان لغة ما بعد حزيران ليست هي اللغة التي تصلح لادب ما بعد تشرين .
دلالتان طرحتهما الحرب ، بحدة ، على المثقفين العرب . واذا كانت الدلالة الاولى بحاجة الى مراجعة ، بعد خفة التوتر الناري ، نسبيا ، فان الدلالة الثانية فرضت نفسها على لغة الكتابة القادمة .

واقول ((الكتابة القادمة)) لان ما كتب ايام الحرب ، وما يكتب الآن ، لا يختلف في لغته المتوترة عن لغة حزيران ، على الرغم من المساحة النفسية التي تفصل بين اللغتين . كلتاها عاجزة عن استيعاب البعد الشمولي لحركة الانسان العربي خارج زمنه الضيق ، وكلتاها تتحرك من موقع الانفعال .

لغة ما بعد حزيران صارت اهدأ ، اكثر عمقا وتاملا ، واكثر قدرة على الكشف ، وحين امتلكت طاقة الرؤيا تحولت الى لفظة محرصة كان لا بد منها ، في اعوامها الاخيرة خرجت من طقس الندب والطم وتمزيق الثياب ، الى الطقس الآخر : البحث عن زمن للخروج ، واستقراء ملامح الفارس العربي الذي يمسك بهذا الزمن . كانت ضرورية لغة ما بعد حزيران . غير ان ضرورتها انتهت بعهد الحرب الجديدة .

لقد جاء زمن الخروج ، والفارس الذي كانت تعرى ملامحه ولد الآن ، ولدته الحرب . هو ، الآن ، ينهو وجها ويبدأ وقامة . ولد في المكان ذاته ، المكان الذي كانت الكلمة الناصجة تنتظر ولادته منه : القتال !

ولد ، وعلى اللغة القادمة ، لغة ما بعد تشرين ، ان تكون حاضنة له . حاضنة ، وأما ، ومربية . على لغة ما بعد تشرين ان تتقدم الى موقع جديد ، فان امام وظيفتها مهمة اصعب : الحفاظ على زمن الولادة .

ثمة ايد لا مرئية ، ايد باظافر وقفازات ، ايد بمخالب عارية ، ومخالب ذات اقنعة ، ايد من غير جهة تمتد ، ثمة ايد بأسماء ، وايد لا اسماء لها ، تولد الآن ، وتولد بعد الآن ، وستظل تولد ، لتصنع حصارا يائسا ، حصارا عناديا وحاقدا ، على الوجه - الفارس الذي ولدته الحرب ، وعلى لغة الكتابة القادمة بتر تلك الايدي ، بترها ، وفك الحصار ، بترها ، وانقاذ الولادة .

ألم أقل : هي مهمة صعبة ؟!

انما ، ها هنا فقط ، مفترق الطرق بين الكلمة التي تملا حجم الفعل ، والكلمة التي لا لزوم لها .

٣٠ تشرين الاول

الثورة

ماذا ؟ يلعن الوحش من زرع في فكيه الاياب ؟
أم هي توبة النذب أن يصرع !؟

في سريره يضحك اله الحرب من اذاعة الجنرالات . يضحك ، ويتابع الرقص . يضحك ، ويجن جنون الرقص فيه . يضحك ، ويموت من الضحك ، ثم يسقط عليهم ، ثم ، معا ، يموتون ، ثم تحدث النهاية .
بعدها يولد الربيع .

الثورة

٢٠ تشرين الاول

عن السنبلية التي تولد

رايت سنبلية تولد .
أحضروا فلما ودواة ، لنكتب اسمها في دفتر الزرع الجديد ،
أحضروا الشجر الطفل ، والمدن البكر ، لتشهد على ولادتها .
أحضروا التاريخ .

في وطني سنبلية تولد .
سجل عندك يا ضابط الاحوال التاريخية . سجل عندك ، في رأس الصفحة الاولى من كتاب مواليد الحرب :
الاسم : سنبلية عربية .

تاريخ الولادة : ٦ تشرين الاول ، عام ١٩٧٣ .
مكان الولادة : الضفة الشرقية من قناة السويس - الجسر
الصاعد على جبل الشيخ .
اسم الاب : جولان .
اسم الام : سينا .

الوجه ، العينان ، الانف ، الشعر : قطعة برق متوهجة ،
فوهتا مدفع ، صاروخ سام ٦ ، وحقل نار .
اللون : بنفسجي معجون بحمرة قانية .
علامات نارقة : بشر نفض في الخد الايمن ، دبابة تي ٦٢ في
الخد الايسر .
توقيع القابلة : الحرب .

في وطني تولد سنبلية ، تحمل فسي جيبها شهادة ميلادها ،
وتمشي ، متأبطة ذراع بندقية . وعلى خصرها زنار أحمر ، ومندبل
أرجواني معقود حول عنقها ، وفي شعرها مشط من لهب قرمزي .

كفامة مكسوة بالشمس تمشي . تحت خفها الاخضر يولد الجمر ،
ومهرجان الفضب .. وراءها تنتصب قامات القصب المنحني ، وتتحرك
مخترقة جدار الريح .

وراءها الارض تولد ، والمدن العذراء .
وامامها تفتح مملكة النبوة .
أقول لكم : ألقوا بأحزانكم واتبعوها .
أقول لكم : اخلعوا نعالكم فانتم في واديا المقدس .
أقول لكم : أخرجوا من موتكم ، وادخلوا ملكوتها في جبل
الصمود الاخضر .

في وطني سنبلية تولد .
الذين لم يشهدوها ينبغي ان يزيحوا عن ابصارهم غشاوة
المسى .

هي كالبرق تجيء .

وبعدها الصاعقة .

الثورة

٢٧ تشرين الاول